# الفصل الأول الجذور

*سنوقد من الأعالي حريقا عالميا*
*نحرق فيه كل برجوازي*
*حريقا عالميا ينزف الدماء*
*ارحمنا يا رب السماء*

**ألكسندر بلوك**

قام البلاشـــفة بثورة أكتوبر في عام 1917م، مستخدمين شعار «الثأر». وقد تضمنت برامجهـــم وإعلاناتهم كما ضخما من الأفكار العدمية الرافضة للواقع. فقد رفضوا الحروب التي كبدت روســيا ما يزيد عن مليــوني قتيل. كما رفضوا المزايا التي كانــت تمنح لطبقة الملاك، الذين يتحكمون فيما يزيد عن نصف مســاحة الأراضي المزروعة. رفض البلاشفة أيضا البنى الديمقراطية، التي كانت قد نشــأت لتوها، وتمثلت في حكومة مؤقتة وطبقة برجوازية روســية شابة، لم تكن قد نجحت تماما في صياغة شكل للتعايش والتعاون مع طبقة العمال. وأخيرا، رفضوا المنظومة السائدة، أيام القيصر، في العلاقة بين القوميات المختلفة.

كانت الشــعارات الراديكالية المتطرفة تخلب العقول والقلوب، في ظل ظروف اســتثنائية ســادت البلاد. كانت شعارات البلاشفة تســكر الألباب ونذكر منها: «السلام للشعوب» و«الأرض للفلاحين» و«الخبز للجوعى» و«المصانع للعمال».

وقد تضمن إعلان حقوق الشــعوب الروســية، الصــادر في 2 (15) نوفمبر 1917م ما يلي:

1. المساواة والسيادة لكل الشعوب الروسية.

2. حق الشــعوب الروســية في تحديد وتقرير مصيرها بشــكل حر، وحــتى الانفصال التام وتشكيل دولة مستقلة.



obeikandl.com

3. إلغاء كل المزايا والقيود المفروضة على أساس قومي أو قومي ديني.

4. حق الأقليات القومية والجماعات الإثنية، التي تقيم في روسيا، في التنمية الذاتية، وبكل حرية.

ولم تشهد الحقبة السوفيتية احترام أي من تلك البنود، أو الالتزام بها، بلا استثناء. إلا أنه لا يمكن بأي حال تجاهل ونفي جاذبية مثل هذا الإعلان، سواء في داخل البلاد أو خارجها، وخاصة في تلك الفترة الثورية.

وقد تضمنت الكلمة التي توجه بها فلاديمير لينين، في 20 ديسمبر 1917م، "إلى كل المسلمين الكادحين في روسيا والشرق"، نفس الموتيفات سابقة الذكر. حيث تضمنت الوثيقة حقيقة كون العرب، مثلهم مثل جميع المسلمين لهم الحق في أن يصبحوا ساده في بلدانهم وفي "بناء حياتهم الخاصة وفقا للنمط والنموذج الذي يناسبهم".

حمل البلاشفة إلى الشعوب المعذبة والغاضبة فكرة رسالة النجاة والإنقاذ، وقدموا أنفسهم كونهم مملكة الرب على الأرض، والتي منحت اسما جديدا غير معروف، وغامضا، وهو «الشيوعية». وهي ترمز إلى مجتمع يقوم على توفير الحرية والمساواة والعدالة والحياة الكريمة والحب. الطريق الوحيد هو السير خلف البلاشفة والإيمان بهم. هذا الرفض الشامل لكل ما هو قديم، سواء السلطة، أو الملكية الخاصة، أو القانون، أو الأخلاق، أو الدين، قد سمح بهدم العالم السابق من الأساس، وباستخدام كل الوسائل الممكنة والمتاحة لتحقيق ذلك. كانت الحضارة السابقة، والحياة الإنسانية نفسها، ينظر إليها في أفضل الأحوال بوصفها مادة بناء، لتشييد سور يحيط بحديقة غناء رائعة في المجتمع الشيوعي. وفي أسوأ الأحوال كانت تبدو كسماد لزراعة هذه الحديقة وتخصيبها. فأي مجتمع كانوا ينوون بناءه؟ وكيف سيتم ذلك؟ لم يكن أي من «الثوريين المحترفين» المؤمنين بضرورة هدم النظام السابق، والقادرين على ذلك، ليعرف ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك. لكن الزمن قد أظهر ثبات شكل الدولة الجديد لعقود، وما صاحب ذلك من دكتاتورية حزبية، وقدره النظام الجديد على توفير قاعدة مجتمعية، تجسدت في جزء من الطبقة العاملة، ثم في طبقة البروليتاريا (اللومبنبروليتاريا كما يطلق عليها حديثا).

أصبحت تلك الموجة الشاملة، ومتعددة الجوانب، والتي تعمل تحت شعار الفكرة والرسالة، عنصرا أساسيا مكونا في النظام الجديد، جنبا إلى جنب بجوار آلة القمع والاضطهاد. ومثلت



obeikandl.com

الأيديولوجية الشـيوعية، من نظرية الماركسية اللينينية وحتى دعايات الصحف والراديو، الأساس الخرساني الذي يربط بين تكتلات النظام، منفردة، وبين الأشخاص الأحياء الذين هم في حاجة إلى ديـن جديد وعقيدة جديدة، والاسـتفادة من مثلها العليا في تبرير سـلوكياتهم وتصرفاتهم، وأحيانا كثيرة – جرائمهم.

ولكن تلك المبادئ والمثل قد أصابت بعدواها الكثير من الأجيال من السوفيت، وخاصة طبقة الإنتلجينتسـيا الجديدة، والمفكرين اليسـاريين في الغـرب، والمناضلين من أجل التحرر الوطني في الشـرق. «كانـت البيانات الصادرة من الدولة الناشـئة تمثل ظاهرة جديدة على البشرية» هكذا كتب عالم التاريخ المصري، ش. الشافعي، بعد مرور سنوات عديدة. «السلام بين الشعوب» «يا بروليتاريي العالم اتحدوا!» «أيتها الشعوب المستعمرة. تحرري!» «إننا نقدم دعمنا المادي والمعنوي لكل شـعب يسعى للتحرر». «لأول مرة في تاريخ البشرية تظهر دولة عظمى لا تسـعى لاسـتعمار أحد، أو لاحتلال أحد، أو لاستغلال أحد. وقفت الدولة في صف كل القوى التحررية في العالم. هذه الدولة الحديثة اقترحت على سـعد زغلول مساعدته وتقديم السـلاح له، ولكنه خـاف وأجابها بالرفض» (إبان الأحـداث الثورية في مصر عام 1919م اسـتخدمت اللفظة الروسية «سوفيت»، حيث أطلقت على بعض أجهزة السلطة المحلية حينها).

اقتبسـت الأفكار والمثل الدعائية من واقع المجتمع السـوفيتي، إلا أن ذلك لم يقلق كثيرا مؤيدي الاشتراكية في الغرب، والمناضلين من أجل الحرية في الشرق.

أولا: لأن الأغلبية العظمى من «أصدقاء الاتحاد السوفيتي» لم يكونوا على دراية بهذا الواقع، وكانت مصادر إلهامهم "البروشورات" الدعائية، والمعلومات المنتقاة بعناية.

**ثانيا:** لم يشأ احد أن يتعرف على هذا الواقع، فقد كانوا في حاجة إلى أفكار وشعارات وأمثلة تدعم نهجهم وسلوكهم السياسي الخاص أو مرتكزاتهم.

**ثالثا:** من وجهة نظرهم، وبهدف تحقيق مسـتقبل مشرق للإنسانية، كان الروس وغيرهم من شعوب الاتحاد السوفيتي على استعداد لاقتسام المعاناة مع شعوب العالم. وكانت أي فكرة أو رسالة تستوجب التضحية، وهي تضحية مبررة، وخاصة لو لم تكن أنت من يضحى.

**رابعا:** أن الأهم هنا كان السلوك السياسي الفعلي للاتحاد السوفيتي على الساحة الدولية، والذي كان يلقى دعما طالما يتفق ومصالح وأهداف وأمال الثوريين شرقا وغربا، وكذا النخب السياسية الجديدة التي وصلت إلى سدة الحكم فيما بعد.

لم يكن البلاشفة، الذين استولوا على السلطة في روسيا، على دراية كافية بالشرق. ولم تسعف خبرة بعض قادة ثورة أكتوبر الذين عملوا في مناطق الفولجا المسلمة، وما وراء القوقاز، في إجراء تحليل ناجع لمواقف واتجاهات التنمية الاجتماعية والسياسية في الشرق. وتحت وطأة العجز عن الفهم حاول البلاشفة فرض الشعارات والنظريات اللينينية على الواقع المعقد لبلدان آسيا وأفريقيا. وكانت معظم الأبحاث والدراسات (وأغلبها سياسية) والتي أجراها العلماء السوفيت المتخصصون في الشرق، منذ الثورة وحتى التسعينيات من القرن العشرين، تعتمد على نتائج بحوث علماء غربيين متعاطفين مع الفلسفة الماركسية اللينينية.

غير أن ذلك لم يعق استمرار تأثير الدعاية والشعارات البلشفية، ولفترات طويلة، سواء التي استخدمت بشكل مباشر، أو ما أدرج منها ضمن «نظرية علمية». والسبب في ذلك يتكشف من خلال التحليل العميق، ودراسة الحقائق ومقارنة الحجج، أو عن طريق الإمساك بجوهر القضية وسبل حلها. تمثل هذا الجوهر في رفض البلاشفة لكل ما هو سابق عليهم في النظام العالمي، بما في ذلك النظام الاستعماري والتبعية السياسية. ومن السهل أن نقف اليوم وننتقد النظرية اللينينية حول الإمبريالية. وهناك العديد من الدلائل، يمكن أن نوردها، لإثبات أن النظام الاستعماري مثل ظاهرة أكثر تعقيدا مما بدا عليه الأمر في كتب ر. جيلفيردينج، وأ. جوبسون، والتي ضمنها لينين في كتاباته. الأمر الأهم هنا هو أن النتيجة السياسية التي يمكن أن نخرج بها من هذه الفرضيات تتلخص في فلسفة نفي القديم، والدعوة لهدمه، أي للتدمير الثوري لهذا النظام العالمي الذي يحق فيه لشعب أن يحرم شعبا آخرا من استقلاله السياسي، أو يفرض قيودا عليه. ويتبع ذلك النتيجة العملية والتي تتمثل في الاعتراف بشرعية وقانونية أي شكل من أشكال النضال ضد النظم الاستعمارية وشبه الاستعمارية، ومن أجل التحرر الوطني، وحق الشعوب والأمم في تقرير مصيرها، والحصول على استقلالها السياسي.

اتسقت شعارات لينين وأتباعه بشكل كامل أو جزئي والمساعي السياسية لقادة الحركات الوطنية التحررية وخاصة الأكثر راديكالية منها، والتي تعبر عن طموحات الشعوب. وعنى ذلك أن زعماء بريطانيا وفرنسا قد أخطأوا عندما اعتبروا أن انتصارهم على ألمانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى هو مبرر لشرعنة طموحاتهما الاستعمارية، وسعيهما للإبقاء على،

وتوسيع إمبراطوريتيهما الاستعماريتين في الشرق الأوسط والأدني. وأنهما بذلك يسيران ضد مسار التاريخ، وضد مساعي الشعوب المتزايدة للحصول على الاستقلال.

وقد كتب فلاديمير لينين، قبل ثورة أكتوبر 1917م، يقول أن رسالة الاشتراكيين هي دعم نضال الشعوب المقهورة، من أجل أن تحصل على التحرر الوطني الكامل، وأن هذا النضال مشروع «بكل أشكاله، حتى لو وصل الأمر إلى الانتفاضة المسلحة أو الحرب.» ولم يرد في خطب قادة الحزب الشيوعي السوفيتي حديث عن الطرق السلمية في النضال إلا بعد مرور أربعة عقود كاملة.

ويرى لينين أن روسيا السوفيتية ملزمة ببناء علاقاتها، مع الدول الناشئة، انطلاقا من المقاطعة الكاملة للسياسة الوحشية التي تنتهجها الحضارات البرجوازية، والتي تبنى على إثراء عدد قليل من الدول، على حساب ملايين المستعبدين في بلدان أسيا، وغيرها من البلدان الصغيرة. وحينها تم التركيز على حقيقة ضرورة اتحاد البروليتاريا المنتصرة في الاتحاد السوفيتي، أي البلاشفة، مع قادة الشعوب المقهورة في الشرق، والتي تناضل ضد الإمبريالية، أي ضد الغرب.

كان لينين على قناعة بأن الطبقات الحاكمة في الغرب تستمد قوتها وثروتها من استغلال البلاد المستعمرة، ولما كانت هذه الطبقات هي العدو الرئيس للبلاشفة، فإن هناك حاجة ماسة إلى توفير السبل لإضعافها، وأولها حرمانها من مستعمراتها. والمثير للاهتمام، هنا، أنه من بين واحد وعشرين شرطا وضعها لينين لقبول كيان ما في عضوية الشيوعية العالمية، أن يلتزم الحزب الراغب في الانضمام «بالكشف عن جرائم الإمبرياليين في المستعمرات، وأن يقدم الدعم بالأفعال لا بالكلمات لكل حركة تحررية داخل المستعمرات، وأن يطالب بطرد القوى الإمبريالية المحلية من داخل البلد المستعمر.» وينظر لينين إلى العلاقة بين كل حزب شيوعي والحركة الوطنية التحررية بوصفها مؤشرا هاما على إخلاص الحزب لمبادئ الأممية البروليتارية، أو بعبارة أخرى الإخلاص لروسيا السوفيتية، أو بمعنى أدق لحزب البلاشفة الذي أصبح على رأس السلطة فيها، وبعبارة أكثر دقة لقيادات هذا الحزب.

وقد ظهرت فكرة المحيط المعادي في سنوات الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي. وكان الأعداء يحيطون بنا على الحدود والجبهات، وكانت الثورات البروليتارية على وشك أن تطيح بهذه الأنظمة جميعا، ونقصد هنا الثوار البلاشفة في كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا. تلك

الرؤية الكارثية للعالم قد رسمت للقيادة السوفيتية ملامح عصر الحرب الأهلية، التي قامت بها البروليتاريا ضد البرجوازية في البلدان الرأسمالية الكبرى، والحركات الوطنية التحررية التي قامت بها الأمم المضطهدة. «قال لينين إن الثورة الاشتراكية لن تكون مجرد نضال للبروليتاريا الثورية في كل بلد ضد الطبقة البرجوازية في هذا البلد. بل ستمثل نضال كل الشعوب والبلدان المستعمرة والتابعة، ضد الإمبريالية الدولية.»

ويرى زعماء روسيا السوفيتية أن الحركة الوطنية التحررية تضرب قواعد وأسس الإمبريالية في الصميم، مما يؤدي إلى فقدانها فرص نهب المقدرات والاحتياطيات التي تجمعت من عرق الشعوب، وكذا الثروات المعدنية والأراضي ذات الأهمية الاستراتيجية. في ظروف كهذه تفقد الإمبريالية مصادر هامة للحصول على أرباح ضخمة، تجنيها نظير استغلالها لمستعمراتها، كما تتضاءل مساحة أسواقها الخارجية، وفرص إثراء قياداتها، ما يوفر الظروف الملائمة لنضال الطبقة البروليتارية في داخل البلدان الرأسمالية ضد حكوماتها، ويقوي من الصراعات الطبقية الداخلية. ولم يورد لينين، بطبيعة الحال، من الأرقام أو الأدلة ما يؤكد هذا الدور الاستعماري للغرب. ولم يكن في حاجة إلى ذلك، بطبيعة الحال. كانت البروليتاريا المنتصرة في روسيا السوفيتية في حاجة إلى حليف، ولو تعذر الحصول عليه، فإن الضرورة تقتضي أن نصنعه.

كما عملت ماكينة الدعاية على الترويج للمسار المعاكس. فقد كانت نجاحات الحركات الوطنية التحررية في أي بلد تعتمد على نجاح روسيا السوفيتية، وطبقة البروليتاريا في بلدان الغرب المتقدمة. فقد أشار لينين إلى أن «روسيا تدعم، بدون شرط أو قيد، أي مشترك ديمقراطي يعارض ويناهض الاضطهاد والظلم في داخل أي مجتمع برجوازي.» فكل مقاومة تقوم بها روسيا السوفيتية للغرب، وكل نضال تقوم به بروليتاريا الغرب ضد الطبقة البرجوازية في دولها، من شأنها أن توفر الظروف المناسبة لكفاح تحرري ناجح للشعوب المقهورة، كما يضعف من مواقف الإمبريالية، ويفقدها مصادر قوتها، ويقيد من حريتها في الحركة والتصرف في داخل مستعمراتها ومناطق نفوذها.

كتب لينين في تلك السنوات: «لقد كنا دائما، وسنظل، نقف مع التقارب والالتحام بطبقة العمال الواعية في الدول المتقدمة، سواء من العمال أو الفلاحين أو العبيد في الدول المقهورة والمستعمرة. كنا دائما، وسنظل دائما، نقدم النصح لكل الطبقات المقهورة في كل بلاد العالم المضطهدة والمستعمرات، ونطالبهم ألا ينفصلوا عنا، بل يتقربوا قدر الإمكان ويلتحموا بنا.» وأضاف، في يوليو 1920م: "إن الإمبريالية العالمية لا محالة إلى نهاية، وسيحدث ذلك

عندمـــا يصل الضغط الثوري الذي تقوم به الشـــعوب وطبقات العمـــال المقهور والمضطهدة، داخل كل بلد، إلى ذروتها. وعندما تتحد مع الضغط الثوري لمئات الملايين من البشـــر، الذين ظلوا إلى وقتنا هذا خارج التاريخ". (لم تسقط الإمبريالية بعد) و«يجب أن ننتهج سياسة تهدف إلى إنشـــاء تحالف وثيق بين كل الحركات الوطنية والتحررية وبين روســـيا السوفيتية.» ولا يمكن لأحد أن يعترض على رؤية كهذه لا من حيث الشكل ولا المضمون.

اكتســـبت هـــذه الرؤية جاذبية كبيرة، واختـــبرت قيادة الحزب البلشـــفي هذه التجربة في الشـــرق، ليروا ما إذا كانت ستشـــتعل جذوة الثورات الجماعية هناك، ما سيخفف من الأزمة التي تعاني منها الســـلطة الســـوفيتية الجديدة، والتي كانت تصطدم حينها بصعوبات ضخمة، وتعاني من أزمة نتيجة سياســـة «الشيوعية العســـكرية». ولهذا الهدف تم في مدينة باكو، في ســـبتمبر 1920م، تنظيم عرض مســـرحي هو الأضخم والأكبر تمويلا، حمل عنوان "مؤتمر شـــعوب الشرق"، وكان باكورة لعشـــرات المنتديات حول التضامن بين شعوب آسيا وأفريقيا التي عقدت في الفترة بين الخمســـينيات والثمانينيات. ومن بين الدول المشاركة في هذا المؤتمر تركيا وإيران والعراق والســـعودية وســـوريا وفلسطين. وقد مثلت كل من هذه الدول نفسها أو عددا من الدول التي تقاسمها نفس الرؤى والمواقف. كان البيان الختامي الموجه لشعوب الشرق متطابقـــا وملائما للظروف المأســـاوية التي عاناها العالم أثناء انعقاد المؤتمر، وكذا للمســـتوى الثقافي والفكري للدول المجتمعة. «ســـيكون من الصعب عليكم أيها الكلاب المســـعورة أن تلتهموا شـــعوب الشرق، ولن يكون في مقدوركم أيها الجلادون أن تحولوا الملايين من البشر، من الفلاحين والعمال، في الشـــرق، إلى عبيد لديكمّ. لقد قمتم باحتلال مساحات شاسعة مـــن الأراضي، وليس في مقدوركم التهامها وســـتصير وبالا عليكـــم!» وينتهي البيان بدعوة الشـــعوب المضطهدة في الشـــرق إلى القتال والنضال، وشن حرب مقدسة، حتى ينعموا بحياة مستقلة، ويحققوا سعادتهم لأنفسهم، ولجميع شعوب الشرق، ولملايين العبيد لدى إنجلترا سواء من الفلاحين أو العمال!»

وقد تحدث لينين أيضا عن مؤتمر شـــعوب الشـــرق. ففي خطابه، بتاريخ 15 أكتوبر عام 1920م، قـــال: «ما النتائج التي تحققت بعد مؤتمر الشـــيوعيين في موســـكو، ومؤتمر ممثلي شـــعوب الشـــرق في باكو؟ لا يمكن قياس وتحديد هذه النتائج بشـــكل فوري، كما أن هذه النتيجة يصعب قياسها بشكل حسابي دقيق، لكنها في النهاية تمثل مكسبا وفوزا، قيمته أكثر بكثير من كل الانتصارات العسكرية، كونه يظهر لنا أن تجربة البلاشفة، وخبرتهم، ونشاطهم

وبرنامجهـــم، ودعوتهم للنضال الثوري ضد الرأسمالية والإمبريالية، قد نالا اعترافا في العالم كله. كما أن ما تم في كل من موســكو وباكو في ســبتمبر سيســتغرق وقتــا طويلا حتى يتفهمه ويستوعبه العمال والفلاحون في كل بلدان العالم.»

تحولت المجموعة الصغيرة من المؤمنين بالمسيح إلى أمة كبيرة وحضارة مسيحية عالمية. كما تحول «اتحاد النضال من أجل حرية الطبقة العاملة في روسيا الى حزب بلشفي وحزب شيوعي ودولة اسمها الاتحاد السوفيتي وحلفائه».

بقي المؤتمر أداة دعائية، وبقيت البلشفية، بوصفها نظرية وممارسة سياسية وتنظيما سياسيا، عاجــزة عن التعايش والتأقلم مــع البلدان العربية، وتركيا، وإيران. تطلب الأمر عدة عقود من الزمن قبل أن تظهر، ومن ثم تختفي، أحزاب شــيوعية قوية في كل من العراق والســودان. كما كانت تجربة تفعيل النظرية الماركســية اللينينية على المســتوى الحكومي في اليمن وأفغانستان مأساوية. وسوف يأتي الحديث تفصيلا عن الحركة الشيوعية في تلك المنطقة.

ومن بين الجهود الموجهة للقضاء على منظومة العلاقات الدولية الرفض المعلن للدبلوماسية السرية، ونشر الاتفاقيات السرية المحفوظة في أرشيف الخارجية الروسية. ومن بين هذه الوثائق اتفاقية سايكس بيكو حول تقسيم تركيا الآسيوية، والتي أبرمت بين فرنسا وإنجلترا في 16 مايو 1916م وبموافقة الحكومة الروسية. وقد أخطرت الحكومة العثمانية بفحوى، الاتفاق ونقلته بدورها إلى الشــريف حسين الذي كان يترأس حينها الثورة العربية ضد الأتراك في الحجاز. ولم يغير تحرك البلاشفة من سير الأحداث الثورية العربية، ولا من خطط تقسيم الشرق الأوسط، على الرغم أنها زادت الشقاق بين الشريف حسين والإنجليز. وقد كتب رئيس الوزراء البريطاني حينها، ويدعى لويد جورج في مذكراته، أن نشــر الوثائق السرية التي حددت مصير الأراضي العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية قد أثار استياءً واسعا في الدوائر العربية.»

وشهدت الفترة ما بين الحربين العالميتين تضاؤل حجم النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط والأدنى، ووصوله إلى حالة مزرية، فيما كان النفوذ الفرنسي والبريطاني في أعلى مستوياته، ولم يكن لديهما أي منافســين حقيقين، حتى أن أي محاولة من جانب الاتحاد الســوفيتي حينها لإقناع بلدان المنطقة بالقبول برؤية موسكو كانت لتبوء بالفشل لا محالة. هكذا استمر الوضع منذ عصر الإمبراطورية الرومانية وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي، ولم تكن كل من بريطانيا وفرنسا استثناء من القاعدة. غير أن انهيار هاتين الإمبراطوريتين قد سمح بتحقيق تقدم محدود للاتحاد

السوفيتي في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت البرجماتية ما تزال مهيمنة على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط والأدنى. كان تلك براجماتية الدولة العظمى التي تعلن عن رفضها التام للنظام العالمي القديم، وفي نفس الوقت قد اكتسبت ملامح الدولة التي يتوجب عليها التعايش مع غيرها من الدول، والخضوع للقواعد القديمة للسلوك على الساحة الدولية. كان هذا الاتحاد المتناقض بين الأيديولوجية والممارسة، وبين فكرة دور رسول السلام، التي تمثل أساس سياسة الدولة السوفيتية، وبين المصالح الحقيقية لهذه الإمبراطورية الضخمة، كل هذا قد حدد وفسر طبيعة سلوك الاتحاد السوفيتي على الساحة الدولية، بما في ذلك في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، وكان سببا في الكثير من النجاحات والإخفاقات.

وقد فهم المسؤولون في الكريملين، مبكرا، أن المقومات الثورية التي عقدت عليها الآمال، سواء في الشرق أو الغرب، بدت في نهاية الأمر خيالا وأوهاما. كان من الواجب العمل على توحيد سلطة الحزب داخل الدولة. أما على الساحة الدولية فكان يلزم أن يتم ترسيم الحدود وتأمينها، والبحث عن حلفاء. وعندما فهم القادة السوفيت أنه لم يعد هناك مكان للحديث عن فرض الشيوعية في بلدان كتركيا وإيران وأفغانستان، أو ضمها للاتحاد السوفيتي، اتجهت الحكومة السوفيتية إلى إرساء علاقات حكومية طبيعية مع هذه الدول. وكان ذلك بمثابة تجربة عملية ونموذج لشكل العلاقات التي ستربط بين الاتحاد السوفيتي وبلدان العالم الثالث مستقبلا. وقد أغمضت موسكو عينيها، وغضت الطرف، عن السياسة الداخلية لهذه الدول (بما في ذلك التضييق على قوى المعارضة التي تنتمي للأيديولوجيا الشيوعية) وذلك في سبيل دعم استقلالها وحيادها، وربما تعميق مواجهتها للغرب، وتعاونها مع الاتحاد السوفيتي.

كان لدينا مع تركيا عدو مشترك، ألا وهو دول الوفاق الأوروبية، والتي لم تكتف بتقسيم البلدان العربية التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية، بل وقامت بتقسيم تركيا نفسها إلى عدة أجزاء.

ويعد مصطفى كمال أتاتورك زعيم نضال الشعب التركي من أجل النهضة والاستقلال وإرساء الجمهورية والإصلاح. وكان من الناحية الأيديولوجية مناهضا للبلاشفة، إلا أن ذلك لم يمنع البلدين من التقارب.

وفي 16 مارس 1921م، تم في موسكو التوقيع على معاهدة «الصداقة والإخاء»، بين جمهورية روسيا السوفيتية وتركيا. وقد نظمت المعاهدة مسألة الحدود بين البلدين.

وأعلنت الحكومة السـوفيتية عدم اعترافها بأي قرارات دولية تخص تركيا، ما لم يعترف بها البرلمان التركي، (وقصد به معاهدة سيفر للسلام التي أقرت تقسيم تركيا وتبعيتها لدول حلف الوفاق).

وتم تأكيد التعاون والشراكة بمعاهدة أخرى بين البلدين، سميت معاهدة قارص، وتم التوقيع عليهـا في 13 أكتوبر 1921م، بـين تركيا وجمهوريات ما وراء القوقاز، وكانت قد انضمت حينهـا إلى الاتحاد السـوفيتي. كما تم توقيـع معاهدة تركية أوكرانيـة في 2 يناير 1922م (تم التوقيع عليها في أنقرة، أثناء زيارة قام بها إلى تركيا القائد العسـكري م. فرونزي). وأخيرا، تم في 17 ديسمبر 1925م، التوقيع على معاهدة عدم الاعتداء، والحياد بين موسكو وأنقرة.

وفي 21 فبرايـر 1921م، قام القـوزاق الفرس، بزعامة رضا خـان في إيران، بانقلاب عسكري. وتم تشكيل حكومة جديدة برئاسة سيد ضياء الدين (عين رضا خان وزيرا للحربية بالحكومة، ثم ما لبث أن أعلن نفسه شاها على إيران).

وقامـت هذه الحكومة بإلغـاء المعاهدة الموقعة بين إيران وإنجلـترا في 1919م، وقررت، في 26 فبراير 1921م، التوقيع على معاهدة مع الاتحاد السـوفيتي. وتضمنت بنود المعاهدة إعلان الحكومة السـوفيتية رفضها التام للسياسـات الاسـتعمارية التي انتهجتها الحكومات الروسية في السابق، وإلغاء كافة المعاهدات والاتفاقيات والتفاهمات التي تم توقيعها بين روسيا القيصرية وإيران والتي انتهكت الحقوق الإيرانية. والتزم الطرفان بعدم السماح بتأسيس أو بقاء أي تنظيمات معارضة لروسيا أو إيران على أراضيهما. وتنص المادة السادسة من المعاهدة على ما يلي: «وافق طرفا المعاهدة على أنه في حال محاولة أي طرف ثالث القيام بتدخل مسـلح على أراضي فارس، أو انتهاج سياسـة استعمارية، أو تحويل أراضي فارس إلى قاعدة للهجوم العسـكري على روسـيا، وأن يمثل ذلك خطورة على أمن حدود جمهورية روسـيا الاشتراكية السـوفيتية، أو حلفائها، وفي حال عجزت الحكومة الإيرانية، بعد تلقيها تحذير من الحكومة الروسية السوفيتية عن رد هذا الخطر والتهديد، فإن الحكومة الروسية السوفيتية سيكون لديها الحق في إرسـال قواتها إلى داخل الأراضي الفارسـية، واتخاذ الإجراءات العسـكرية الضرورية للدفاع عن النفس. وبمجرد انتفاء السـبب وإبعاد الخطر، تلتزم الحكومة الروسـية السـوفيتية بسحب قواتها فورا من أراضي فارس.» وقد وصف علماء الاجتماع ورجال السياسة السوفيت هذه المعاهدة بأنها «نموذج للعلاقات المتوازنة».

وفي فبراير 1919م، وصل الأمير أمان الله إلى السلطة في أفغانستان، حيث أعلنت حكومته استقلال أفغانستان، وهو ما ضمن للأمير الجديد دعم الجيش والشعب.

وقد تسبب رفض الحكومة، في الخامس من مارس 1919م، لإقامة علاقات أفغانية إنجليزية، في إشعال إنجلترا لحرب ثالثة ضد أفغانستان. وكانت روسيا السوفيتية هي أول من اعترف بسيادة أفغانستان في مارس 1919م، وأعربت عن استعدادها لتبادل السفراء في أسرع وقت (أرسل فلاديمير لينين خطابا رسميا بذلك إلى أفغانستان في مايو 1919م). وخسرت إنجلترا. ووفقا لمعاهدة رافالبيند، التي وقعت في 1919م، اعترفت إنجلترا مبدئيا باستقلال أفغانستان. وتم الاعتراف النهائي في عام 1921م، بعد توقيع معاهدة الصداقة السوفيتية الأفغانية في 28 فبراير 1921م.

وفي عام 1926م وقع الاتحاد السوفيتي مع أفغانستان معاهدة حياد وعدم اعتداء مماثلة للاتفاق السوفيتي التركي. غير أن الاتفاق مع أفغانستان قد تضمن بعض الالتزامات الإضافية من الطرفين. فقد نصت المادة الثانية على التزام كل طرف بمساندة الطرف الثاني ضد أي أعمال عدائية يقوم بها طرف ثالث، ضد أي من الجانبين. وقد تمت إضافة هذه المادة إلى المعاهدة في عام 1931م، والتي تم تمديدها عده مرات، في أعوام 1936 و1955 و1975م. فضلا عن ذلك تضمنت المعاهدة مادة تفرض على كلا الطرفين الامتناع عن أي تدخل مسلح أو غير مسلح في شؤون الطرف الآخر، ومنع أي أنشطة تستهدف الطرف الثاني. وفي مايو 1928م قام ملك أفغانستان أمان الله خان بزيارة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي.

وفي عام 1924م أقام الاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية مع الحجاز. كما شهدت في مدينة جدة مقر البعثات الدبلوماسية أول زيارة رسمية لمسؤولين سوفيت. وفي نهاية عام 1925م، وبداية عام 1926م، وهو العام الذي شهد سيطرة سلطان نجد على الحجاز، وتأسيس دولة موحدة (تم في عام 1932م إطلاق اسم السعودية عليها) كان الاتحاد السوفيتي هو أول دولة تعترف بها وتقيم معها علاقات دبلوماسية. وفي عامي 1926 – 1927م، تم إرسال شحنات من البضائع والسلع إلى الحجاز شملت السكر، والمنتجات النفطية، والنسيج.

وقد اعترف الاتحاد السوفيتي باستقلال اليمن، في عام 1926م. وكان هذا البلد قد عاش تناقضات وصدامات مع بريطانيا العظمى وإيطاليا. وفي رسالة بعث بها محافظ الحديدة،

حينها، الأمير سيف الإسلام محمد إلى الحكومة السوفيتية، جاء:«إن الحكومة الروسية العظيمة يقظة تماما في حراسة مصالح الشرق. ولذا فإنها تواجه حربا شرسة من جانب القوى الإمبريالية، والتي تنفق الكثير من المال والقدرات العسكرية والسياسية، من أجل تحقيق هدفها في منع دول الشرق من الاستنارة بروح الحرية. إن الحكومة الروسية تكتسب يوما بعد يوم تعاطف الشعوب المقهورة. ونحن نأمل في إرساء علاقات جيدة بين حكومتنا ونظيرتها السوفيتية».

وفي عام 1928م، وعندما تعرض اليمن لاعتداء عسكري إنجليزي من ناحية الجنوب، وضغط آخر سعودي من الشمال، توجه الحكام اليمنيون إلى مكتب التمثيل السوفيتي في الحجاز بطلب لتدشين علاقات رسمية بين اليمن والاتحاد السوفيتي، وتفعيل التبادل التجاري. وسرعان ما تم إرسال السلع الضرورية لليمن عبر ميناء الحديدة.

وفي نوفمبر 1928م، وقع الاتحاد السوفيتي واليمن معاهدة صداقة، واتفاقية تجارة. وتمت الإشارة في ديباجة المعاهدة إلى أنها تقوم على الاعتراف بمبدأ المساواة بين الطرفين، فيما يتعلق بالحقوق وكل جوانب العلاقات بين الشعبين والبلدين. كما نصت المادة الأولى على اعتراف الاتحاد السوفيتي الكامل والمطلق باستقلال حكومة اليمن، وبملكها.

ويبدو أن كاتب هذه السطور سينحاز إلى التقديرات التي أبدتها السياسة السوفيتية فيما يتعلق بالعلاقات مع كل من تركيا، وإيران، وأفغانستان، وكذا الدول العربية التي نالت استقلالها في ذلك الوقت، بوصف ذلك أحد مظاهر البرجماتية الناجحة والفكر السديد، والذي يتفق ومصالح الشعب الروسي، والاتحاد السوفيتي.

وعلى كل حال، فإن جميع الأدبيات السوفيتية تناولت هذه الخطوات والإجراءات، ووصفتها بكونها تميزت عن غيرها من الدعوات للثورة والنضال ضد «خدم الإمبريالية»، و«الكلاب الدموية»، وغير ذلك. غير أن الزعماء السوفيت كانوا ينظرون الى الاقتصاد بوصفه خادما للسياسة، وكانت طموحاتهم تفوق مصالح الدولة، والتي بدورها تعلو على التضحيات البشرية. ولذا يمكننا أن نتفهم مغزى الإجراءات التي اتخذها القادة السوفيت، والسياسة السوفيتية الداخلية والخارجية.

وكان القائمون على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي، حينها، إما من أصحاب الأيديولوجيات، الذين كانوا على استعداد لتجاوز القواعد الأخلاقية والقانون الإنساني والتضحية بالآخرين، وأحيانا بأنفسهم، في سبيل تحقيق مبادئهم، وإما أناسا على استعداد

من البداية لبذل أي شـــيء في ســـبيل البقاء والتقدم في هرمية السلطة، وتحقيق مصالح مادية خاصـــة. وكان الصنـــف الأخير قادرا علـــى ابتلاع الصنف الأول، حيـــث أعاقت المنظومة البيروقراطية عمل أصحاب الأيديولوجيا، الذين اتســـموا بالكثير من المثالية. وأدي ذلك إلى تحولهم تدريجيا إلى الصنف الثاني، دون التخلي عن مبادئ الماركسية اللينينية، حيث سعوا إلى إحداث تحول في عملية تطبيق هذه المبادئ. وكان بينهم أناس تعاملوا مع الشعارات والأفكار بجدية، وبالرغم من أن أكثرهم إخلاصا ووفاء شـــاركوا سياســـيا، إلا أنهم من الناحية العملية كانوا بعيدين كل البعد عن الشعارات التي يرفعونها.

وفي معرض رده على طلب مصطفى كمال أتاتورك أمر فلاديمير لينين بإرســـال 60 ألف بندقية، وألفين إلى ثلاثة آلاف ذخيرة لكل منها، و108 بطاريات أرضية و12 بطارية ثقيلة، بالإضافة إلى عشـــرة ملايين روبل ذهبية (تكلفة إرســـال 30 ألف طن دقيق و60 ألف طن قمـــح)، وكان ذلك في عام 1921م. وكان القمح في تلك الفترة يمثل أهمية كبيرة لحياة الناس في روسيا، حيث كانت منطقة الفولجا تعاني المجاعة، وكانت هناك حالات أكل لحوم البشر، ومات الملايين جوعا. وكان في مقدور الملايين العشرة التي أنفقت على أن تستخدم في استيراد حبـــوب يمكن أن تنقذ مليونين إلى ثلاثة ملايين، حيـــث كانت كافية لإطعامهم على مدى شـــهر ونصف الشهر إلى شهرين كاملين. كانت هذه الإشارة الودية تجاه تركيا السبب عمليا في مجاعة مهلكة في الفولجا.

وربما لا تكون هذه التقديرات دقيقة، وأن كمية القمح المشتراة لم تكن لتصل في موعدها إلى الجائعين، غير أن المؤكد أن القادة الســـوفيت قد عرضوا حياة مئات الآلاف من المواطنين للخطر، في سبيل تحقيق هدف سياسي وهو الصداقة مع تركيا، ومساعدتها. واليوم وبعد مرور عشـــرات الســـنوات لا يمكن وصف ما حدث إلا بالبراجماتية الشديدة بهدف تحقيق مصالح الدولة السياسية والوطنية.

ومع حلول عام 1930 – 1931م تم تطبيق نظام المزارع الجماعية، وهو ما قضى على قطاع الزراعة والاقتصاد الزراعي، حتى أن أوكرانيا ومناطق جنوب روســـيا، والتي تتمتع بأكثر الأراضي خصوبة، أصبحت تعاني الجوع، ومات الملايين من البشـــر وســـجلت حالات أكل لحوم البشر. حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحبوب والدقيق والسكر ومنتجات النفط الروسية تصدر إلى الحجاز واليمن وإريتريا وجيبوتي ومصر. وفي عام 1932م قدمت الحكومة السوفيتية قرضا إلى تركيا مقداره 8 ملايين دولار لبيعها معدات صناعية سوفيتية.

وتمر خمسة عشر عاما أخرى وإذا بالاتحاد السوفيتي يتحول من دولة مجاعات بعد الحرب في نهايات الأربعينيات، إلى دولة مصدرة للحبوب. كيف يمكن قياس مدى نجاعة هذه السياسة وتلك الروابط والعلاقات الخارجية التي حكمت على الآلاف والآلاف من المواطنين ليس فقط بالشد على بطونهم، بل بالجوع، وربما الموت.

ويبدو مصطلح «السياسة الخارجية» هنا غير ذي معنى، مثله مثل مصطلح السياسة الداخلية. فعلى مدى الحقبة السوفيتية شاع في السياسة الداخلية والخارجية لهذا البلد استخدام مصطلحات أخرى، تجمع بين المنطق والمثل العليا والمجون.

وخلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، كان نشاط الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط والأدنى محدودا. وفي الوقت نفسه تواصل التعاون الاقتصادي والتجاري مع كل من إيران وتركيا. ففي تركيا تم تشييد العديد من المشروعات وخاصة في مجال النسيج بدعم سوفيتي.

وشهدت التطور على صعيد العلاقات السوفيتية المصرية العديد من العراقيل، حيث شهدت الثلاثينيات اتهام أعضاء التمثيل التجاري السوفيتي في مصر بالقيام بنشاطات معادية، وتم طردهم.

وشهد عاما 1937 – 1938 ذروة السياسة القمعية الستالينية ضد الكوادر الحزبية السوفيتية، وتم استدعاء أعضاء البعثة الدبلوماسية السوفيتية في جدة. وتم إعدام كل من السفير حكيموف، والكثير من الدبلوماسيين. ورغم بقاء العلاقات شكليا إلا أنها كانت قد قطعت بشكل فعلي. ولم يكن في موسكو حينها من لديه القدرة على التنبؤ بنتائج مثل هذا القرار وتبعاته.

وتركز اهتمام القيادة السوفيتية حينها على أوروبا. كانت ألمانيا النازية وغيرها من دول المحور تمثل الخطر الحقيقي والأساسي على الاتحاد السوفيتي. وقد أوصى المؤتمر السابع والأخير للشيوعية العالمية بالعودة إلى إقامة جبهة واسعة موحدة، بوصفها السبيل الوحيد والناجع لمقاومة الفاشية. وفي الوقت نفسه كانت هناك مساعٍ، على الجانب الآخر، لإنشاء جبهة تحد بين القوى الديمقراطية.

كانت الأحزاب الشيوعية وكل العمال والكادحين في العالم يعملون للحفاظ على مصالح الاتحاد السوفيتي، وهو ما كان يحدد علاقة البروليتاريا العالمية بالحرب. وتراجعت، للمرتبة الثانية، العمليات المعادية لفرنسا وبريطانيا بما في ذلك في الشرق الأوسط والأدنى، باستثناء الفترة التي أعقبت توقيع ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا.

وفي أثناء اللقاء الذي عقده مع وزير خارجية ألمانيا النازية، روبينتروب، تحدث وزير الخارجية السوفيتي، ف. مولوتوف، عن اهتمام بلاده بالتعاون مع الخليج العربي. وهو ما فسره الكثيرون حينها من المعارضين للسياسة السوفيتية بأنه خطوة توسعية، تسعى من خلالها روسيا للوصول إلى البحار الدافئة. وربما كان لدي هنا تفسير مختلف: أن المباحثات والاتفاقيات التي وقعت مع ألمانيا كانت بدافع السعي إلى عدم البقاء في مواجهة مباشرة مع القدرة الألمانية العسكرية، مثلما هو الحال في لندن وباريس. ولو تخيلنا تقسيما ما للعالم حينها، فإن الاتحاد السوفيتي كان قد اختار لنفسه الانضمام والاتحاد مع الدول التي تجاور حدوده الجنوبية، ومن هنا كان سعيه للقضاء على النفوذ البريطاني فيها، وعدم السماح بهيمنة ألمانية هناك. ومن هذا المنطلق انسجمت السياسة السوفيتية مع أهدافها بضمان أمن الاتحاد السوفيتي، وفي نفس الوقت لم تتعارض مع مصالح شعوب المنطقة.

وقد أرغم الاعتداء الألماني النازي ضد الاتحاد السوفيتي الحكومة السوفيتية على الرجوع لمنطق الحرب، والبقاء في سياساتها بمنطقتي الشرق الأوسط والأدنى. فقد تحولت بريطانيا العظمى من دولة إمبريالية في المنظور السوفيتي إلى دولة ديمقراطية عظمى تحارب الطاعون الألماني. فيما اتخذ قرار باحتلال إيران بسبب تعاطفها مع ألمانيا.

وفي الخامس والعشرين من أغسطس 1941م، دخلت القوات السوفيتية إيران، وكتبت صحيفة «البرافدا» مقالا متناغما مع الدعاية السائدة حينها، جاء فيه: «قال لنا العجوز ذو الشعر الأشيب: أرحب بكم وفق المادة السادسة من معاهدة 1921م.»

كما دخلت القوات الإنجليزية المناطق الجنوبية من إيران، وتنحى الشاه رضا بهلوي عن السلطة وغادر البلاد.

وحافظت تركيا على الحياد أثناء الحرب، فلم يكن لدى القيادة في تركيا ثقة أو تعاطف سواء مع الشيوعيين أو الروس. وربما رأى ستالين والمحيطون به حينها أنه لا يمكن التنبؤ بالنتائج إذا ما وجهت اليابان ضربتها، ليس لبيرل هاربر، بل لمنطقة خاباروفسك وفلاديفوستوك،

ومن ناحية أخرى كررت تركيا مغامرتها في 1918م، وهاجمت القوقاز. وقد اتضح ذلك فيما بعد، عندما تحدث رئيس الوزراء التركي، ش. ساراجوجلو بعد سنوات، إلى سفير هتلر، فون بابين، قائلا إنه كتركي يتمنى هزيمة روسيا. لكن القيادة التركية اتسمت بدرجة عالية من ضبط النفس والحكمة، وانتهجت سياسة نجت بفضلها من التورط في الحرب، وكان ذلك بوصية من الزعيم التركي أتاتورك.

وفي عام 1943م، تم تدشين العلاقات الدبلوماسية السوفيتية المصرية رسميا.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية تغير ميزان القوى في العالم. أضحت القوات البرية السوفيتية الأكبر والأضخم في العالم، في وسط أوروبا ومنشوريا. وبقيت ألمانيا واليابان يعانيان من تبعات الهزيمة والدمار. تراجعت فرنسا لفترة ولم تعد الدولة العظمى، فيما جرت عملية سريعة لصبغ أوروبا الشرقية بالطابع السوفيتي، وتحولت هذه المنطقة إلى معسكر اشتراكي يتألف من «دول الديمقراطية الشعبية».

وفي أمريكا، وهي الدولة التي لم تمس أراضيها تقريبا أثناء الحرب، وكانت تتمتع حينها بنصف القدرات الصناعية العالمية، بالإضافة إلى السلاح النووي، اعتقدت القيادة هناك أنه قد حان الوقت لهيمنة أمريكا على العالم. غير أنه كان عليها أن تواجه معارضة الاتحاد السوفيتي، الدولة التي ربما عانت الكثير أثناء الحرب، ولكنها في الوقت نفسه تمكنت من بناء ترسانة عسكرية ضخمة.

وفي الدول العربية تنامت قوة الحركات المعادية لفرنسا وبريطانيا. ولكن الكرملين لم يكن شديد الاهتمام بهذه البلدان. حيث كانت الأولوية لكل من الجارتين تركيا وإيران.

وفي ظل نشوتها بالانتصار الساحق على العدو القوي، وإدراكها لتفوقها العسكري الكبير، قررت القيادة السوفيتية الحصول على أقصى حد من التنازلات من تركيا، وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة العسكرية على المضايق. وسرعان ما تم إلغاء معاهدة 17 ديسمبر 1917م. طالبت القيادة السوفيتية بقواعد في المضايق (الدفاع المشترك عن مضايق البحر الأسود)، وإعادة كل من قورصا وأردغان إلى الاتحاد السوفيتي، حيث كانت هاتان المنطقتان ضمن الإمبراطورية الروسية قديما، وتم منحهما لتركيا بموجب معاهدة 1925م. ولم تكن المطالبة بهاتين القطعتين الصغيريتين وعديمتي الأهمية إلا أسلوبا للمساومة على المطلب الأساسي، وهو المضايق. وقد جهز ستالين قواته تحسبا للتدخل العسكري في تركيا ولكن الهجوم لم يتم، حيث

كان من الصعب القيام بتدخل عسكري في تركيا، ولم يكن الاتحاد السوفيتي على استعداد حينها لمواجهة أمريكا وبريطانيا. بل أدى ذلك إلى نتائج عكسية، أهمها تحول تركيا من سياسة الحياد إلى العداء الواضح للاتحاد السوفيتي وروسيا، والانضمام إلى عضوية حلف الناتو، ومن ثم المشاركة في كل التكتلات العسكرية المعادية للاتحاد السوفيتي في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى. وبدلا من دعم الأمن على الحدود الجنوبية، حدث تدهور، استمر لعقود، في الموقف الاستراتيجي للاتحاد السوفيتي، وأصبح الجيش التركي الذي يتألف من نصف مليون جندي جزءا من قوات الناتو، وانتقل الجناح الجنوبي للحلف ليكون على تخوم الاتحاد السوفيتي. وشيدت أمريكا القواعد العسكرية وقواعد الصواريخ الحاملة للرؤوس النووية في تركيا (في 1961 – 1963م) والتي يصل مداها إلى أوكرانيا، وجنوب روسيا، والقوقاز، والفولجا.

ويرى الخبراء الأمريكيون أن مطامع ستالين في المضايق كانت من أهم الأسباب في اندلاع الحرب الباردة. فقد تحدث الرئيس الأمريكي، ترومان، أمام أعضاء الكونجرس، في مارس 1947م، عن ضرورة تقديم الدعم العسكري والاقتصادي لكل من تركيا واليونان، من أجل الحفاظ على حريتهما واستقلال قراراتهما. وقد أطلق على هذا الخطاب «نظرية ترومان»، ويعتبره الخبراء تدشينا للحرب الباردة في علم التاريخ الغربي، على الرغم من أن الكثير من الباحثين يربطون ذلك بخطاب تشرشل في مارس 1946م.

وقد أدت المواجهة مع تركيا إلى وقوع الكثير من الضحايا الأبرياء، حيث تم نفي عشرات الآلاف من الأتراك المقيمين على أراضي جورجيا، إلى آسيا الوسطى. وقد تم تشريدهم مرة أخرى، في عام 1989م، وتهجيرهم إلى مناطق مختلفة في الاتحاد السوفيتي، حيث رفضت جورجيا استقبالهم مرة أخرى.

وقد اتسمت السياسات السوفيتية تجاه إيران أيضا بالخطأ وعدم المسؤولية. حيث انسحبت القوات الأمريكية والبريطانية من إيران في ديسمبر 1945م، واضطر الاتحاد السوفيتي إلى إنهاء الانسحاب خلال ستة أشهر، مع حلول شهر مايو 1946م. وكان قد سعى إلى المماطلة في الانسحاب، حيث كانت هناك رغبة في إبقاء إيران تحت النفوذ السوفيتي، وكان ستالين يرى في ذلك هدفا عظيما. فقد رأى أمامه بلدا ضعيفا من الناحية العسكرية، نشطت فيه التيارات اليسارية من خلال حزب العمل، بالإضافة إلى تنامي نشاط الحركات الوطنية الانفصالية في اذربيجان الإيرانية، وكردستان الإيرانية. وتم إعطاء الضوء الأخضر لتأسيس

جمهوريات أذربيجانية وكردية، أملا في وضعهما تحت السيطرة والنفوذ السوفيتي ما يمثل ضغطا دائما على إيران.

غير أن ستالين عاد مرة أخرى وأخطأ في حساباته. لم تكن هناك في تلك المناطق قوى مستعدة للنضال من أجل تأسيس حكومات مستقلة. وعلى الرغم من التنوع الإثني الكبير في إيران، إلا أن القوى الداعمة لمركزية السلطة في هذا البلد كانت أقوى بكثير من الداعمة للانفصال. وقد بعث الرئيس الأمريكي هاري ترومان مذكرة إلى ستالين، تضمنت تحذيرا مباشرا بضرورة سحب قواته من إيران. وكانت أمريكا في تلك الفترة تستعرض من وقت لآخر قدراتها النووية التي لم يكن الاتحاد السوفيتي قد توصل إليها بعد. ولم يكن ستالين يرغب في مواجهة مباشرة مع الغرب بسبب إيران. وتم سحب القوات السوفيتية وتمكن جيش الشاه من دحر القوى الانفصالية بين الأذر والكرد.

وسعيا للحفاظ على ماء وجهه والحصول على أية مزايا أو تسهيلات اقتصادية من إيران، وقعت الحكومة السوفيتية مع رئيس الوزراء الإيراني، قوام السلطنة، معاهدة يمنح بموجبها الاتحاد السوفيتي حقوق تنقيب نفطي، وغيرها من المزايا، في شمال إيران. غير أنه وبعد انسحاب القوات السوفيتية، والقضاء على ما سمي الجمهورية الأذربيجانية والكردية من قبل الجيش الإيراني، رفض البرلمان الإيراني التصديق على المعاهدة. واتسمت العلاقات الإيرانية السوفيتية بالعداء على مدى سنوات طويلة. ولكنها رغم ذلك كانت أقل عدوانية من نظيرتها مع تركيا. فقد كان للتناقضات بين إيران وبريطانيا، بسبب النفط والاتفاقيات المجحفة، أثر كبير في جعل العلاقة مع بريطانيا أكثر عدوانية، الأمر الذي كان من شأنه أن يسمح لسياسة سوفيتية حكيمة وعقلانية تجاه إيران، لاحقا، من تحقيق مكاسب كثيرة. غير أن الزعيم السوفيتي كان خاضعا لنظرية الداء للبرجوازية الوطنية، وكل القوى الإصلاحية في آسيا وأفريقيا التي كانت، في رأيه، تعادي مصالح الشيوعية والتحرر الوطني وتقف أمامها.

ولم تكن رؤيته خاطئة في إيران وتركيا فحسب، بل في إسرائيل أيضا. وسوف نتحدث تفصيلا في فصل منفصل عن العلاقات السوفيتية الإسرائيلية.

وهنا أود الإشارة إلى أن الأمل في اعتبار إسرائيل صديقا للسوفيت في منطقة الشرق الأوسط كان ضعيفا دائما، ولم يجد يوما ما يدعمه. وقد أدى الفشل السياسي في العالم العربي إلى تصاعد لهجة معادية للسامية داخل الاتحاد السوفيتي.

وقد كتب المنظر الحزبي والأكاديمي، ي. جوكوف: «إن فضح الأيديولوجية البرجوازية القومية الرجعية في مختلف أشكالها يسرع من عملية التحرر الوطني والاجتماعي لشعوب البلدان المستعمرة والتابعة.» وأشار إلى أن الإصلاحيين في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة يصرون على البقاء بعيدا عن الصراع بين المعسكرين، وعلى اتباع سياسة الحياد وعدم الانحياز تجاه الصراع الأيديولوجي بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. وفي الوقت نفسه يطلقون الأكاذيب في حق الاتحاد السوفيتي، ويدعمون القوى الاستعمارية بشكل كبير.

وبعد مرور عدة سنوات، وفي معرض حديثه عن تلك البلدان، وصف وزير الخارجية الأمريكي، ج. دالاس، موقف الحياد بأنه غير أخلاقي. وأخذ علماء الاجتماع الروس لفترة يكررون هذه المقولة. حتى أن الزعيم الإيراني البرجوازي القومي، محمد مصدق، اتهم بأنه «خادم للإمبريالية» أما جمال عبد الناصر، المعارض للغرب، فقد وصف بكونه عميلا أمريكيا وفاشيا.

وقد عكست توجهات الدعاية السوفيتية، والتصريحات الرسمية منطق تفكير القيادة السوفيتية. فقد أصبح الحلفاء السابقون في الحرب ضد الألمان واليابانيين، هم أنفسهم، منقسمين إلى معسكرين وجبهتين، ضمن حرب جديدة وهي الحرب الباردة. أصبح هناك عالم القطبين وصار له لونان: أسود أو أبيض. إما هم وإما نحن. قوى السلام والتقدم، وقوى الحرب والرجعية. لم يكن هناك حديث عن عالم ثالث. كانت تلك هي نظرة القيادة السوفيتية ورؤيتها وهي الرؤية نفسها عند القيادة في واشنطن.

وأكد علماء الاجتماع السوفيت أن الرأسمالية قد دخلت المرحلة الثانية في أزمتها الشاملة، وأن الشيوعية ستسود قريبا، ومعها مستقبل مشرق للبشرية. وتحدثوا أيضا عن قرب قيام الثورات الاشتراكية. وأنها ستهب في شكل انقلابات عسكرية، وحروب أهلية، يقوم بها الكادحون تحت قيادة الشيوعيين، ضد البرجوازية المحلية والأجنبية. وأن العلاقات الدولية ما هي إلا شكل من أشكال الصراع الطبقي. ومع الوضع في الاعتبار أن الحرب هي ممارسة سياسية بوسائل أخرى، فإن البلدان الرأسمالية، بقيادة أمريكا، تستعد للحرب ضد الاتحاد السوفيتي، لأن الإمبريالية تعي أن الاتحاد السوفيتي وغيره من البلدان الاشتراكية، يمثلون قاعدة لدعم البروليتاريا والحركات الوطنية التحررية في الغرب.

وبالتالي فإن كلا من الاتحاد السوفيتي وحلفائه مضطرون للتحول إلى المعسكر المسلح لصد الإمبريالية، والاستعداد للحرب القادمة لا محالة. وكما قال لينين، فإن نضال الشعوب من أجل التحرر من الاستعمار وشبه الاستعمار يضعف من الإمبريالية، ولذا فهو يستحق أن يلقي الدعم من الدوله الاشتراكية الأكبر، ومن كافة دول المعسكر الاشتراكي في العالم. وسوف يتحقق النصر في المعركة إذا ما تمت تحت قيادة الثوريين الشيوعيين المشتعلين حماسة، لا الخدم والخانعين.

وفي عام 1949م، وبعد سنوات من الحرب الأهلية انتصر الشيوعيون في الصين، وذلك على الرغم من تعامل ستالين ببعض التخوف من العملاق الشيوعي القادم، الذي يقع على تخوم الدولة السوفيتية. ودارت حروب مشابهة في كل من كوريا والهند الصينية. وكانت القوة وحدها هي ما يحدد مصائر الشعوب، وتقدمها نحو مستقبل مشرق.

وقد أثار ظهور الأسلحة النووية مسألة تقنيات إنتاجها. وبالطبع لم يكن ستالين يخشى أيه تضحيات، غير أن الاستخدام المحتمل لمثل هذا النوع من الأسلحة كان يهدد بقاء الجنس البشري كله.

وقد مثل ظهور السلاح الذري في أمريكا، وإعلان واشنطن عن فعاليته وقدراته، تهديدا مباشرا للأمن القومي للاتحاد السوفيتي ومواقعه الاسترتيجية في العالم. ووضعت الدولة نصب أعينها إنتاج سلاحها النووي الخاص، ومن ثم مضاعفة ترسانتها النووية، ووسائل نقلها ومداها لإصابه أهدافها. حتى الدول «الليبرالية» انتهجت المسار نفسه فلم يكن لديها خيار، حيث تحولت كل من إنجلترا وفرنسا إلى دول نووية بهدف دعم وزنها السياسي في السياسة العالمية.

واستطرادا، نشير إلى أن هذه المواجهة الحادة التي بدأت بعد إعلان الرئيس الأمريكي ترومان للحرب الباردة في مارس 1947م، قد عكست ليس فقط الرؤية التي تقسم العالم بين أبيض وأسود، بل والأسلوب الخاطئ في التعامل مع الاتحاد السوفيتي. وقد ساعدت سياسة الغرب على اتحاد أطراف النظام السوفيتي، وتطوير القطاع الصناعي والعسكري، وتنمية الاقتصاد والاهتمام بالعلوم.

ومن الملاحظ، هنا، أن السياسة السوفيتية والدعاية في فترة حكم ستالين، التي كانت بعيده عن واقع الأحداث في الشرق الأوسط والأدنى، قد حققت العديد من النقاط الايجابية في البلدان العربية، حيث أصبحت سمعة الاتحاد السوفيتي أقوى بكثير. وقد دعمت موسكو

المطالبات بانسحاب القوات البريطانية من مصر، ومنح لبنان وسوريا استقلالهما، ومن بعدهما ليبيا. وقد شـــهدت الفترة من 1952 وحتى 1955م مشـــاركة فعالة من قبل ممثلي الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، أثناء مناقشة قضايا استقلال المغرب وتونس، ودعموا جهود هذين البلدين في سبيل الحصول على استقلالهما.

وقد اســـتمرت الحكومة السوفيتية في تجاهل احتياجات شـــعبها، ووفرت موارد للتصدير لبيع منتجاتها للبلدان العربية، مقابل ســـلع ربما تكون ضرورية للاتحاد السوفيتي ولكنها ليست أساســـية، بل هي ســـلع ترفيهية وثانوية. حيث كانت البلاد تعاني مـــن نقص في المنتجات الغذائية. وفي عام 1948م وفي ظل النقص الغذائي وافق الاتحاد الســـوفيتي على إمداد مصر بمئتين وخمسة وثلاثين ألف طن قمحا، في مقابل 38 ألف طن قطنا مصريا.

وفي عـــام 1951م اقترحـــت حكومات كل من أمريكا، وإنجلترا، وفرنســـا، وتركيا، على البلدان العربية وإسرائيل، المشاركة فيما سمي بقيادة الشرق الأوسط للدفاع المشترك عن بلدان الشـــرق الأوســـط والأدنى. وقد تضمنت هذه الخطة إيفاد البعثات العسكرية الغربية، ونشر قوات أجنبية على اراضي هذه الدول وتقديم قواعد عســـكرية تستخدم من قبل قيادة الشرق الأوســـط. وقد قدمت الحكومة الســـوفيتية مذكرة انتقدت فيها بشدة هذه الخطة. وإليكم ما أذاعه راديو القاهرة في تلك الأيام: «إن مصر توافق تماما على ما جاء في المذكرة السوفيتية عن أن مشـــاركة البلدان العربية في قيادة الشرق الأوسط ستحد من سيادة هذه البلدان وتخضعها لمصالح الدول العظمي التي تتســـم بالأنانية.» وقد قامت القيادات في كل من ســـوريا ولبنان بتصريحات مماثلة.

وفي العشرين من أكتوبر 1951م نشـــرت الصحيفة القاهرية النافذة «المصري» والتابعة لحزب الوفد مقالة جاء فيها: «إن أحداث الأيام الأخيرة تثبت، بما لا يدع مجالا للشـــك، أن مصر عليها ألا تنتظر شيئا إيجابيا من الدول الإمبريالية. ولم يعد أمام مصر إلا أن تولي بوجهها إلى حليف جديد، يدعم سياســـتنا، ويستطيع مساعدتنا على تحقيق أحلامنا القومية. » وفي شـــهر مايو 1951م صرح عضوالبرلمان الســـوري عبد اللطيف يونس: «إنني أطالب الحكومة السورية، وحكومات البلدان العربية الأخرى، أن تسارع بتوقيع اتفاقيات مع الاتحاد السوفيتي".